عرب فرنســـا

للأستاذ عمر الدسوقي

عطبت سيارتنا ، ونحن نصعّد في الجبل صوب قرية من قرى لبنان ، وكان عطبها إزاء كوخ مشرف على الطريق ، أطلت منه عجوز نالت منها السنون حتى تركتها أثراً متهدماً لإنسان : درداء ، شمطاء ، عجفاء ، معروقة اليدين ، مخددة الوجه ، محدودبة الظهر . وكأنما راعها أن تقف سيارة فخمة بباب كوخها المتهدم المتواضع الذي يحاكيها قدما ، ويجانسها ضعفاً ، ويماثلها قماءة ، فأخذت تجيل فينا بصراً لا يزال حديداً ، لم يبل كما بلى جسمها ، ولم يرث كما رثت مُنَتُها ، يتطلع إلينا في لهفة وعجب ، كأننا من عالم آخر لم تَرَه من قبل .

فقال صاحبي يداعبها : صُبِّحت بالخير ياخالة . من أي العرب أنت ؟ ، فأجابت بلهجة جبلية فحة ، وبصوت خشن ، استعار غلظته من هذه الصخور الجاسية التي تحيط بها : « إني من عرب فرنسا » . فقال صاحبي دهشاً : « وي ! وهل لفرنسا عرب ؟ » فتلعثمت العجوز ، وحارت ثم أجابت : « إننا لا نعرف غيرها حاكماً على هذه الديار . قد بسطت ألويتها على السهول والحزون ، وتغلغلت لغتها في القرى والدساكر ، والبيوت والمتاجر ، ينطق بها الصغير والكبير ، ويزهى بالتشدق بها الحقير والأمير ؛ قد طبعت بلادنا بطابعها ، وتدخلت في الهين والجليل وملكت أزمة المال والرجال . وإني في وكري هذا لأحس بأسها وسطوتها فهل حدت عن الجادة إذا قلت : إني من عرب فرنسا ؟

ولم يطل صاحبي معها الحديث لنستشف خبيئة نفسها ، ونعرف أمتهكة هي أم جادة ، وفرحة بهذا الوضع أم ترحة ؟ فقد جأرت السيارة مستأنفة السير فهرولنا إليها مشيرين إلى العجوز مودعين . وما إن استقر بنا المقام في السيارة حتى التفت إلى صاحبي وقال : « ما رأيك فيما سمعت ؟ » فقلت : « نكراً والله ، إن كانت هذه العجوز جادة تقرر حقيقة قد سلمت بها ، واعتقدتها من قلبها فذلك برهان لا مرية فيه على أن فرنسا نجحت في هذه الديار نجاحاً نفذ إلى ألباب العجائز في الجبال . أما إن كانت متهكمة فهذا دليل اليقظة الروحية ، والإيمان الكامن في هذه القرى النائية عن العمران ، وحجة على أن هذا الجبل الأشم أشد بأساً وأقوى مراساً من أن يلين لزبرج الحضارة الموهة ، وأساليب الاستعمار الخادعة .

فقال : لعلها تقرر الحقيقة من وجهة نظر فرنسا ، فإنها تعمل جادة على أن تسلخ هذه الشعوب من مقومات شخصيتها ، وتجردها من كل ما يذكرها بمجد تليد ، أو يحفزها لعمل مجيد ؛ وتلهيها عن مثلها العليا بخلق أسباب التناحر بين أفرادها ، وتطفىء جذوة الإيمان بالحرية المستقر بالفطرة في كل نفس بشرية بما تقدم من نفايات حضارتها ومادية مدنيتها .

ألا ترى كيف فرضت لغتها على المدارس بشتى درجاتها يلقنها الطفل قبل أن يلقن لغة بلاده ، ويتعلم بها كيف يعبر ويفكر ويحسب ! ؟ أليس من الخزي أن يُعَلَّم تاريخ هذه البلاد العربية وجغرافيتها باللغة الفرنسية ؟ ! إن اللغة رمز القومية ، وعنوان الشخصية ، فإذا لهج إنسان بلغة غير لغته في حديثه المعتاد ومع أهل بيته وجنسه ، فهل ثمت ما يفصح عن قوميته ويدل على شخصيته ؟ إن الوجوه تتشابه ، والعقول تتكافأ ، ولكن اللغة وحدها هي التي تفرق بين أمة وأمة . ولأمر ما يعتز الانجليزي بلغته ، حتى وهو غريب ، ويفرضها على الناس فرضاً في الفنادق والمتاجر في أوربا نفسها ، ولا يفكر في تعلم لغة البلاد التي يستوطنها

إن لغة أي بلد تحمل في طياتها تاريخها ، وحضارتها ، وعصارة أفكار أجيالها السالفة ، وآدابها ، وأمثالها ؛ وتذكر دائماً بماضي تلك الأمة ، وهي رمز الشعور المشترك بين أفرادها ؛ فإذا عافها أبناؤها وأنفوا من التكلم بها ، وفرض عليهم النخيل لغته ، فقد اقتطعهم من كل ما يذكرهم بكيانهم الخاص وبدد ما بينهم من شعور بالقومية . وهذا ما عملته فرنسا في الجزائر ، وشمال أفريقية ولبنان وسوريا .

أولا ترى كيف أضرمت فرنسا في هذا البلد نار الطائفية الدينية ، بل فرقت بين أبناء الدين الواحد ، وجعلتهم مذاهب وشيعاً ، وزادت هوة الخلاف بينهم ، وجدت إليها بعض رؤسائهم

وأغدقت عليهم النعم ، ومدت لهم فى أسباب المودّة ، وأضفت عليهم الألقاب حتى يمنعوا فى خلافهم ، وخلقت لهم المناصب ، ووزعتها طبقاً للطائفية ؟ فكيف يرضى هؤلاء وقد نعموا بالرياسة أن يخضع بعضهم لبعض ؟ أو لم تسمع بالرب «سليمان» ؟ قلت : كلا ! ، قال : إنه شخص يدعى الألوهية بجبال العلويين ؛ ويزعم أن روح الله حلت به ، وقد اعترفت فرنسا بألوهيته، وحين ينزل بيروت تضيفه الحكومة الفرنسية فى أرقى الفنادق ، وتحيطه بحرسها وجندها ، وتقله فى أفخم سياراتها ، وتوهمه أنه إله حقيق لا مرية فيه .

ألا تتصور الرب « سليمان » هذا يعود إلى موطنه فى جبال العلويين ، يشيد بفرنسا وعظمتها ويسبح بحمدها وقد بشم من الشبع على موائد الناصبين ، وانتفخ عظمة كاذبة من ثناء الخادعين، واكتظت حقيبته بالمال والهدايا ثمناً لضميره الذى بيع للمستعمرين ؟

إن فرنسا تتدخل فى الصغيرة والكبيرة من أمور هذه البلاد ، فلا تدع لأبنائها مجالاً للتفكير والتدبير ، والموازنة والتقدير . فهى تريد عقولهم مشلولة أو مخبولة ، أو قل إنها تريد أن تفنيهم معنويا ، وتجعلهم بعد جيل أو جيلين لا يحسون ولا يدركون مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، يُدبَّر أمرهم وهم فى غفلة ساهون ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ولا يُستأذنون وهم شهود وهكذا شأن الجزائر اليوم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

فهل بعد هذا تعجب حين تقول هذه العجوز : « إنها من عرب فرنسا » ، إنها من عرب ملك لفرنسا تفعل بهم ما تشاء أو أنهم على وشك أن يكونوا كذلك ، تسومهم الخسف وسوء العذاب ، وتسلبهم حرياتهم ، وتفرقهم أباديد ، وتقتل فيهم الحياء والإباء ، والمروءة والوفاء .

فقلت : وكيف يرضى أهل هذه الديار بهذا ؛ وعهدى بأهل الشام أولى نجدة وحمية ، وغيرة متقدة وحماسة ملتهبة ، ووطنية متأججة . لهم تاريخ حافل بصفحات المجد والفخار ، وفيهم حيوية متدفقة وذكاء فطرى عظيم ، وحرارة إيمان شديدة . ثم هم أحفاد الغسانيين ، والعرب الفاتحين ، وأهل جبال فيهم مراس وبأس ، وصبر واحتمال ، ونزوع إلى المخاطرة والمغامرة ، لا يبالون بالشدائد والأهوال فى سبيل أهدافهم ، فكيف رضوا بنير الاستعمار ؟

فقال صاحبى : إن الاستعمار دنس ، يلوث النفوس الطاهرة ، ويوهن العزم القوى ، ويفتن القلب الأبى ، ويضل العقل الذكى . إنه امتهان للانسان وكرامته ، وانحطاط به إلى مرتبة الرق . وأوربا قد حاربت الرق الفردى ، ولكنها استباحت الرق الجمعى . فخرجت سوريا من الحرب الماضية منهوكة القوى من الجوع والجهل والضعف ، وطمعت فيها فرنسا ، فأبى فيصل وأتباعه على مابهم من وهن أن يكونوا طعمة صينة ، ثم كانت موقعة (ميسلون) وبسطت فرنسا نفوذها على الشام ، وقطعتها إرباً اربا ، فشرق الأردن ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وجبال العلويين ، وجبال الدروز ، والاسكندرونة ، وإنطاكية . وجعل لكل جزء رئيس ، وصار لكل رئيس أذناب وأتباع ، يطمعون فى المناصب والجاه الكاذب . وبذلك ذهبت قوة بلاد الشام فى هذه التفرقة ، ومُكِّن لفرنسا أن تعمل ما تشاء هى وإنجلترا . فلو كان الشمل جميعاً ، والقلوب متحدة ، والقوى متضافرة ، والموارد متجمعة ، لكان الشأن غير ما ترى اليوم ، ولكن قاتل الله الرق والاستعمار !

كان هذا الحديث قبل أن تنهار فرنسا ، وتبتلى بالمحن الشداد ، وتسق كأس الذل حتى الثمالة ، وتنتهك حرماتها .

وقلنا لعله درس يعلمها كيف يتألم سليب الحرية ، وكيف يتململ تململ الذبيح تحت مدية الجزار ، وكيف يتأوه المظلوم والمحروم ، ويصعّد الزفرات والحسرات ، وقد سدت دونه السبل ، وأشرعت فوق رأسه حرب الناصبين .

وشاء الله أن تعتق فرنسا على يد الحلفاء ، ولم تكد تتنسم نسمة واحدة من الحرية حتى أخذت تتطلع إلى أن تسرق غيرها ، وتبسط سلطانها على سواها من الأمم التى وَقتْ لها وهى مثخنة الجراح فلم يطعنها من الخلف ؛ مع أن فرنسا لا تزال بعد دامية الجراح ، مفككة الأوصال ، تهددها المجاعة بالموت .

كنا نظن ، وقد ذاقت فرنسا مرارة الذل والاستعباد ، أنها ستقدر نزعات الحرية عند غيرها من الشعوب ، وكنا نظن ، وقد اعترفت الدول الكبرى باستقلال سوريا ولبنان أن لم يعد ثمة مجال للمساومة فى الرق بأى صورة كانت : انتداباً ، أو استغلالا ، أو امتيازاً .

وكنا نظن ، وأوربا بأسرها كانت تقاتل حتى أمس القريب فى سبيل الحرية ، والمبادىء الديموقراطية ، أننا مقبلون على عهد جديد ، يكرم فيه الإنسان أينما كان ، وتمحى فيه السيادات ، ويعيش الناس سواسية متحابين بعد هذه المحنة القاسية ، والحرب الشعواء . وإلا ففيم كانت كل هذه الدماء المراقة ، والدعاوى العريضة ، والبلاد المخربة ، والإنسانية المنكوبة ؟ !

ياعجباً ! تلجأفرنسا التى كانت تئن بالأمس تحت سياط الجلاد ، إلى تلك السياط التى تسلطها على شعوب تأنف فى شمم وكبرياء أن تدين بعد اليوم لأمة ما بالطاعة والعبودية . أتضرب دمشق بالدافع والطائرات الفرنسية ، لأن أهلها يرفضون وصاية وانتداباً فرض عليهم قسراً ، ولأنهم يرون أنفسهم ومن ورائهم ماضيهم وبين أيديهم حاضرهم ، أكثر رشداً ، وأقوم خلقاً ، وأوفى عهداً ، وأشد جلداً من هذه الأمم التى تفرض نفسها على غيرها ، وتسم غيرها بالقصور ، وهى فى أمس الحاجة إلى مرشد حكيم يجنبها مواطن الزلل ، ويعرفها أن طرق الاستعمار القديمة البالية لا تستسيغها الأمم بعد اليوم ؟ !

كل البلاد العربيــة فى موقف مشابه لسوريا ولبنان ، وهما تعبران اليوم عما يجيش فى كل نفس عربية ، وتضربان بجهادهما الرائع وضحاياهما الخالدة البرهان الناصع على حيوية هذه الشعوب العربية ، وما تستطيع أن تفعله كل منها حين تقف للجهاد ، وتزأر زئير الحرية . وتضافر الأمم العربية معهما وشدها أزرهما المحكُّ الذى تبلى به جامعة الأمم العربية ، فإما عزة وسؤدد يبقيان للابد ، وإما خزى وعار وذل واستعباد لكل هذه الشعوب لا قدر الله . فهل آن لنا أن نعيش أحراراً من نير أوربا ؟ !

عمر الدسوقى

العالم الديمقراطى كما رأيته

تأليف رحالة مصر الكبير محمد ثابت

رحلة ممتعة يقصها علينا المؤلف بأسلوب شيق يذكرنا بالمشهورين من رجال الرحلات العرب كابن بطوطه وابن جبير والبيرونى ، فالقارىء يتبعه مستأنسا بخلال رحلاته فى بريطانيا وايرلندا واستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة وكندا والصين وسد يأجوج ومأجوج وغيرها من بلاد الله الثمن ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد ويطلب مع جميع مطبوعاتنا من المكاتب الشهيرة ومكتبة فيكتوريا بالأسكندرية

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٢ شارع الشيخ محمد عبده بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ — ص . ب الغورية رقم ٧١

أكبر المكاتب العربية وأشهرها

بها أعظم استعداد لنشر المؤلفات

الحديثة والكتب القديمة . . . .